مراجعة لكتاب
التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة*
تأليف: إسماعيل راجي الفاروقي**

عمر حسن القِيّام***

يُمثِّل كتاب "التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة" سردية أكاديمية عميقة التكوين والبِنية، بحيث تصطفُّ بأصالة واقتدار إلى جانب سرديات التوحيد الكبرى التي تبلورت عبر مسيرة الإسلام التاريخية، بَدءاً بالإمام البخاري (توفي ٢٥٦هـ) الذي ختم كتابه "الجامع الصحيح" بكتاب التوحيد، وانتهاءً بإسماعيل الفاروقي (توفي ١٩٨٦م) الذي كتب هذه السردية المتينة لقصة التوحيد بإحساسٍ شهيدٍ تتجسَّدُ فيه جميعُ معاني الكرامة الإنسانية المستمدة من الاستخلاف الإلهي للإنسان، مروراً بغيرِ واحدٍ من أعلام الإسلام الذين نهضوا بأعباء بيان حقيقة التوحيد، والكشف عن محتواه النوراني ومقتضياته العملية، والردِّ على شبهات المخالفين ممَّن تفرَّقوا أحزاباً وشِيَعاً، واستعرَتْ بينهم نيران الخلاف والاختلاف، وأراقوا كثيراً من المِدادِ حين تنكَّبوا الطريق السوي، واستلهموا غير ينابيع القرآن الصافية، وأعرضوا عن أنوار الهدي النبوي الرشيد.

وهي سردية صافية المشارب، واضحة الملامح، رَحْبَة الأفق، مُرهَفة الأداة، تستلهم القرآن الكريم مصدراً أوَّلَ في بناء العقيدة الصحيحة، وتجعل السُّنة الشريفة الثابتة بياناً لمقاصد القرآن، وتجوسُ ببصيرة نافذة ذكية بين سرديات الأديان الكبرى (اليهودية، والمسيحية، والبوذية، والهندوسية)، وعقائد المصريين واليونان وبلاد الرافدين، وتشتبك

* الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد محمد السيد عمر، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م.

** دكتوراه في مقارنة الأديان من جامعة إنديانا/الولايات المتحدة عام ١٩٥٢، وأول رئيس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، انتقل إلى رحمة الله عام ١٩٨٦.

*** دكتوراه في اللغويات من جامعة اليرموك/الأردن. باحث ومحقق. البريد الإلكتروني: omar_alqiam@yahoo.com

تم تسلم المراجعة بتاريخ ٢٠١٨/١/١٠م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٨/٦/١٢م.

بسجال نقدي عميق مع جميع التصورات الشِّركية ومظاهر الانحراف العقدي الناجمة عن القصور الذاتي للإنسان.

لقد أثمر هذا الصفاء الرؤيوي للكاتب أطروحةً عقائديةً تجنَّبَتْ كثيراً من الضباب الكلامي الكثيف الذي اندلق على مباحث التوحيد، وأوشك أن يحجب الرؤية الصافية الصحيحة للتوحيد بسبب الخلافات الجوهرية العميقة بين أنساق العقائد الكبرى في الإسلام (أهل الحديث، والأشاعرة، والماتريدية، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج)، وما تناسل عن هذه الفرق الكبرى من عشرات الفرق الصغيرة التي تركت بمجموعها تراثاً عقائدياً غزيراً متشابكاً متصارعاً وصل حدَّ التناقض والإقصاء، فأفلحت أطروحة الفاروقي في الإفلات من هذا التراث الذي استنزف كثيراً من الجدل، وكان سبباً في شَرْخ البِنية الأساسية للمُعتقَد الصحيح.

وقد أعرض الفاروقي -بوعي باهر- عن هذا الضجيج الكلامي، واغترف بكلتا يديه من منابع التوحيد العذبة الصافية المستفادة من دلائل الكتاب والسُّنة الصحيحة الصريحة، مُلتقِياً بذلك مع أحد أفضل المتون العقائدية في ثقافتنا الإسلامية الذي كتبه الإمام الطحاوي (توفي ٣٢١هـ) باستلهام فريد لحقائق الكتاب والسُّنة، وصاغ في ضوئه عقيدته الشهيرة التي سمّاها "بيان أهل السُّنة والجماعة"، وكتبها بِلُغةٍ فِطريةٍ نورانيةٍ بعيدةٍ عن تعقيدات أهل الكلام ومصطلحاتهم الفلسفية التي تسلَّلَتْ إليهم من دوائر الفلسفة اليونانية، فكانت عقيدته هي خلاصة الخلاصات لحقائق الكتاب والسُّنة، وهو ما عبَّر عنه بقوله: "فهذا جُملةُ ما يحتاجُ إليه مَنْ هو مُنوَّر قلبُهُ من أولياء الله تعالى، وهي درجةُ الراسخين في العلم"، فصارت هذه العقيدة هي الأصفى مَشْرباً، والأدقَّ مَنْزِعاً، وموطنَ إجماعٍ لأتباع المذاهب الأربعة كما جزم به التاجُ السبكي (توفي ٧٧١هـ)؛ رأسُ الأشعرية في زمانه رحمه الله.

وقبل الشروع في تحليل المحتوى العلمي لهذا الكتاب (التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة)، يحسن بنا تقديم إشارة سريعة إلى التراث العلمي الذي تبلور في الثقافة العربية الإسلامية ضمن مُسمّى التوحيد، وكيف أن الظروف المتشابكة والتحديات الآنيّة كانت تقتضي بين مرحلة وأُخرى ظهورَ كتابٍ مختص بعلم التوحيد، بوصفه منظوراً أساسياً

للحياة، ومنطلقاً أوْحدَ لتشكيل الوعي الصحيح بها. وقد سبقَتِ الإشارةُ إلى ريادة الإمام البخاري الذي ختم كتابه "الجامع الصحيح" بكتاب ضخم عنوانه "التوحيد"، مُضمِّناً إيّاه مئة واثنين وتسعين حديثاً، جرى فيها البخاري على منهجه البديع في تقطيع الحديث، واقتناص الدلالة الجزئية الدقيقة له حسب ما تقتضيه ترجمة الباب؛ إذ استلهم أوّلاً علم التوحيد من كتاب الله تعالى، ثم استشهد بخمس وثمانين آية كريمة، في إشارةٍ واضحةِ الدلالة إلى التلازم الجوهري بين الكتاب والسُّنة في بناء علم التوحيد داخل الروح المؤمنة، وهو التلازم الذي سيقع الإخلال به مع الانعطافة الكبرى للمتكلمين نحو المعطيات العقلية المحضة لصياغة التوحيد؛ إذ نُحِّيَتْ نصوص الكتاب والسُّنة جانباً، وانشغل المتكلم -ولا سيما في السياق الاعتزالي- بقضية التوحيد من خلال منظور عقلي صارم، انعطف بالقضية الريّانة بالنصوص الشرعية نحو سجال كلامي جافٍّ فَقَدَ معه التوحيد رُواءه النوراني، وتلاشى بسببه الإحساسُ الأخلاقيُّ بقضية التوحيد بوصفها وعياً وسلوكاً تتحقَّق به غاية الخلق الأساسية؛ وهي العبودية لله رب العالمين.

ومَنْ تتبَّع طبيعةَ البحث الكلامي بين المعتزلة وخصومهم لاح له التفريغُ المَهولُ للمحتوى الروحاني للتوحيد الذي غدا قضيةً كلاميةً صِرْفةً يتفكَّه بها المُتفكِّهون، ويخوض في غمراتها الخائضون. ومَنْ كان في شكٍّ من ذلك فلينظر في تصانيف أبي حيّان التوحيدي، ولا سيما كتاباه الجليلان: "الإمتاع والمؤانسة"، و"البصائر والذخائر"؛ إذ نقل كثيراً من حماقات المتكلمين، وشدَّد الوطأة عليهم، وذكر كلام أهل العلم الربانيين في شؤْم هذه المناهج المتصارعة المتنابذة في قضية الإيمان والتوحيد.

وبعد الإمام البخاري ظهرت الأعمال العقائدية الكبرى المستقلة المُمثِّلة للأنساق الأساسية في الثقافة العربية الإسلامية، وهي: كتاب "التوحيد" لإمام أهل الحديث محمد ابن إسحاق بن خزيمة (توفي ٣١١هـ)، وكتابا: "الإبانة"، و"اللمع" لأبي الحسن الأشعري (توفي ٣٣٠هـ)، وكتاب "التوحيد" لأبي منصور الماتريدي (توفي ٣٣٣هـ). وكان أبو جعفر الطحاوي (توفي ٣٢١هـ) معاصراً لهؤلاء الأعلام، وقد كتب عقيدته الشهيرة التي انعقد الإجماع عليها من جميع الفرق. ويُعَدُّ كتاب "التوحيد" للحافظ محمد بن إسحاق بن مَنْده (توفي ٣٩٥هـ) خاتمة الجهود للقرن الرابع الهجري، وهو كتاب عميق التأثير داخلَ دائرة أهل الحديث على وجه التحديد.

وقد استمرَّتْ مسيرة التصنيف في علم التوحيد بما يضمن تجديده في النفوس كلما مسَّتِ الحاجةُ إلى ذلك، فظهر كتاب "التمهيد لقواعد التوحيد"، وكتاب "تبصرة الأدلة"، وكلاهما لأبي المعين ميمون بن محمد النسفي (توفي ٥٠٨هـ)، وقد عرض فيهما -ولا سيما في "التبصرة"- التنقيح العميق للعقيدة الماتريدية، حيث ظهر قُرْبُ الماتريدية من النصوص، وعدم الاتساع في التأويل على النحو الذي سلكه الأشاعرة، وبخاصة جناح المتكلمين الصِّرْف.

ثم ظهر كتاب "التوحيد" للحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي (توفي ٦٠٠هـ)، وذلك على طريقة أهل الحديث، تلاه كتاب "تجريد التوحيد" لتقي الدين المقريزي الشافعي (توفي ٨٤٥هـ). بعد ذلك هيمنت مرحلة المنظومات على الفكر العقائدي، مثل منظومة "جوهرة التوحيد" للعلّامة إبراهيم بن حسن اللقاني المالكي (توفي ١٠٤١هـ)، التي ما زالت حتى اليوم عميقة التأثير في الفكر الأشعري، ثم ظهر كتاب "التوحيد" لعلّامة الديار النجدية محمد بن عبد الوهاب (توفي ١٢٠٦هـ)، تلاه رسالة "التوحيد" لإسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (توفي ١٢٤٦هـ)، لنلتقي بعد ذلك بصياغةٍ أكثرَ حداثةً على مستوى اللغة والنضج المعرفي، مُمثَّلة في رسالة "التوحيد" لمفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده (توفي ١٣٢٣هـ)، التي انبثقت عن منظور نقدي للتراث العقائدي السابق الذي ساهم -نوعاً ما- في ترسيخ التنابذ بين المسلمين.

وقد ارتقى محمد عبده بالرؤية الاعتقادية إلى مستوى يليق بالكرامة الإنسانية، مُؤَكِّداً أن هذا الدين قد جاء لرفعة الإنسان الشاملة من خلال تعريفه بالله تعالى، وتنوير عقله وروحه بأنوار الوحدانية، وتفعيل طاقة العبودية الراشدة بعيداً عن الجدل الكلامي العقيم، مع ميلٍ ملحوظٍ إلى الفكر الأشعري، ولكن ضمن رؤية نقدية تحكي التطورات داخل هذا الفكر واختيارات أساطينه الكبار، أمثال الباقلاني والفخر الرازي، لنلتقي بعد ذلك بالشيخ حسين الجسر (توفي ١٣٣٨هـ) صاحب "الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية والشريعة المحمدية"، حيث نلحظ إعراضاً مقصوداً عن المحتوى الكلامي للعقائد، وانشغالاً باسلاً ببيان محاسن الشريعة المحمدية والكمال الأخلاقي المستفاد من التوحيد الصحيح.

لقد كُتِبت هذه الرسالة في أواخر عهد الدولة العثمانية، وسُمِّيت باسم السلطان عبد الحميد رحمه الله، ليبزغ بعدها في سماء الأناضول نجمُ بديع الزمان النورسي (توفي ١٣٧٩هـ) الذي كتب "حقيقة التوحيد" في سياق جهوده الكبرى لإعادة تشكيل الوعي من خلال المنظور القرآني للحياة. ثم كانت الجَرْدة النهائية مع الشيخ نديم الجسر (توفي ١٣٩٩هـ) الذي كتب "قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن" على شكل سرديةٍ شديدة التلاحم، تعالج قضية التوحيد من منظور الإنسان الحديث الذي تزعزعت فيه منظومةُ اليقين التقليدي لمصلحة نزعة الشك، وربما الإلحاد، مع المغامرة -إلى أقصى الحدود- في الاعتداد بالذات والعقل الإنساني المحض.

وفي خِضَمِّ هذه الجهود العلمية الرصينة لعلم التوحيد، ظهر كتاب "التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة" للشهيد إسماعيل الفاروقي عام ١٩٨٢م باللغة الإنجليزية، وقد ظلَّ حبيسَ هذه اللغة مدَّةً تزيد على أربعة وثلاثين عاماً قبل أن يرى النور في حَرْفه العربي عام ٢٠١٦م، حين نهض بأعباءِ نقله إلى العربية المعهدُ العالمي للفكر الإسلامي، وأسند موضوع ترجمته إلى السيد محمد السيد عمر، فكانت هذه الطبعةُ التي طال انتظارها، وكانت هذه اليدُ البيضاءُ التي أسداها المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى عُشّاق المعرفة وطُلّاب الحقائق.

يتألَّف هذا الكتاب من ثلاثة عشر فصلاً تتصدَّرها ثلاثُ مقدِّماتٍ تتفاوت في حجمها، مع اتفاقها في الدلالة على الموقع النقدي المتميز للكتاب في سياق علم التوحيد. أمّا المقدِّمة الأُولى (ص١٣-٢٦) فقد كتبها العلّامة الأصولي طه جابر العَلواني رحمه الله، وألقى من خلالها ضوءاً كاشفاً على بِنية الكتاب، ومغزاه، ودوافع ظهوره، ومجاله المعرفي، مع التنويه بانعطافته نحو الحياة، والاشتباك مع مشكلاتها؛ لإخراج موضوع التوحيد من المجال المعرفي المحض، والإشارة إلى رمزية صدوره عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وما ينطوي عليه من الإيحاء بأن "إسلامية المعرفة" في منطلقها وغاياتها لا يمكن تحقيق شيءٍ منها إلا بإرساء دعائم التوحيد والانطلاق من حقائقه؛ إذ عالج الكتاب قضية التوحيد بالاشتباك مع فلسفة الأديان وتاريخها ومقارنتها، والارتقاء بالتوحيد من عالَم المجرَّدات إلى العالَم المُدرَك المُتجسِّد في سياق الحياة.

وبإشارةٍ خاطفةٍ لامعةٍ، يُؤكِّد العَلواني -رحمه الله- أن إسماعيل الفاروقي إنما هو امتداد ناضج أصيل لمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيِّم (توفي ٧٥١هـ)، وصولاً إلى مدرسة الإصلاح الكبرى في العصر الحديث (مدرسة محمد بن عبد الوهاب)؛ إذ ترجم الفاروقي كتابه "الأصول الثلاثة" إلى الإنجليزية، مع تأثُّره الواعي بمدرسة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، مروراً بمدرسة الدهلوي والشوكاني والألوسي الذين هم امتداد لمدرسة ابن تيمية؛ وهي المدرسة التي تُؤكِّد الإطارَ العروبي للخلافة الإسلامية، حيث كانت تتغيّا إعادة بناء الخلافة بناءً عربياً على سَنَنِ الخلافة الراشدة، بتجديد منهج التلقي للخطاب الإلهي الذي كانت ثمرتُهُ جيلَ الصحابة والتابعين ومَنِ اتَّبعهم بإحسانٍ ممَّن حملوا لواء التوحيد ومشاعل العرفان، واندفعوا في الأرض ينشرون أنوار العقيدة الصافية، وقِيَم العدالة والحرية والكرامة الإنسانية.

وبحسب العلّامة العَلواني، فإن هذا الكتاب يُمثِّل مبادرةً محتدمةً تُناقِش قضية التوحيد بإحساس وجداني متوقِّد، ونظرة عقلية نافذة، وبصيرة نقلية تعرف حدود التعامل مع النصوص، لا مقاربةً باردةً متردِّدةً تقف على التخوم، ولا تقتحم الأعماق؛ فهو -رحمه الله- يُفرِّق بين المبادرة والمقاربة، ولا يرى في الثانية سوى نوع من الجبن البحثي، والاحتماء بالمحتملات، هرباً من الوضوح والحسم في القضايا المصيرية.

وفيما يخصُّ مستوى الدافع الذاتي، فقد انبثق هذا الكتاب داخل عقل الفاروقي -رحمه الله- بعد هزيمة عام ١٩٦٧م على شكل سؤال خلاصته: لماذا نُهزَم ونحن مؤمنون؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وكان الجواب: إن في العقيدة خَللاً كبيراً عميقاً، وإن إيمانَ المؤمنين لم يَعُدْ ذلك الإيمان الذي يستحقون عليه النصر.

وأمّا المقدِّمة الثانية فقد كتبها السيد محمد السيد عمر (ص٢٧-٥١)، وقدَّم فيها تلخيصاً شديدَ الكثافة والتركيز لمحتوى الكتاب من خلال فصوله المذكورة، مُستنِداً إلى منظور راسخ من أن هذا الكتاب قد جاء نسيجاً توحيدياً إسلامياً فريداً. ولا يتَّسع المقام هنا للحديث عن جهد هذا الرجل في استيفاء مطالب الدلالة على محتوى الكتاب من

خلال مقدِّمته، غير أنه يجب التنويه والإشادة بترجمته الدقيقة المُبينة عن أفكار الكتاب العميقة، التي جاءت بعد محاولات سابقة لترجمته إلى العربية، قام بها عدَّةُ مُترجِمين مختلفين في ثقافاتهم وتوجُّهاتهم وطاقاتهم الفكرية ومداركهم المعرفية، وهي ترجمات لم تكن مُقنِعةً لرجال المعهد العالمي للفكر الإسلامي -بحسب المرحوم العلّامة جابر العَلواني- لكي تكون ضمن منشوراته، حتى جاءت هذه الترجمة الرصينة للكتاب التي تُعَدُّ عملاً أقربَ إلى الإنشاء الفكري الجديد والتوليد منه، لا مجرَّدَ ترجمةٍ تتعلَّق باللغة ونقل المعاني من لغة إلى أُخرى. وحسْبُكَ هذه الشهادة من العلّامة العَلواني، تنويهاً بقدر الترجمة هذه التي تلوح عليها أمارات الاقتدار الدلالي والبلاغي الرصين.

وبعد تمهيدٍ مكثَّف قصير عكف الفاروقي على بناء كتابه في ثلاثة عشر فصلاً جاءت على النحو الآتي:

- الفصل الأول: التوحيد: جوهر الخبرة الدينية.
- الفصل الثاني: التوحيد: لُباب الإسلام.
- الفصل الثالث: التوحيد: مبدأ التاريخ.
- الفصل الرابع: التوحيد: مبدأ المعرفة.
- الفصل الخامس: التوحيد: مبدأ الغيب.
- الفصل السادس: التوحيد: مبدأ الأخلاق.
- الفصل السابع: التوحيد: مبدأ النظام الاجتماعي.
- الفصل الثامن: التوحيد: مبدأ الأُمَّة.
- الفصل التاسع: التوحيد: مبدأ الأُسْرة.
- الفصل العاشر: التوحيد: مبدأ النظام السياسي.
- الفصل الحادي عشر: التوحيد: مبدأ النظام الاقتصادي.
- الفصل الثاني عشر: التوحيد: مبدأ النظام العالمي.
- الفصل الثالث عشر: التوحيد: مبدأ الجمال.

وداخل هذه الفصول توجد تقسيمات فرعية تستوعب التفاصيل، وتُثري فكرة الشمول والتقصي، وتتيح للباحث أن يتحرك داخل مساحة واسعة وأفق رحْب، تدل بمجموعها على مدى السيطرة المنهجية، والوعي الدقيق بالتفاصيل والحداثة الرؤيوية، ومناقشة قضية التوحيد ضمن أفق العصر، وبلاغته، ولغته، ومشكلاته، بحيث يمكن القول إن هذا الكتاب هو في جوهره جرعة عقلية تستجيب لأسئلة العصر ومعضلاته، وتتسلَّح بنبرة عقائدية واثقة جازمة أمام شكوك العقل الحديث الجارفة، وتستلهم القرآن الكريم مصدراً أوَّلَ في بناء حِجاجها العميق، وتستطيل بالحُجَّة البالغة على جميع الانحرافات والتخرصات والتصورات الخاطئة لقضية التوحيد في مختلف الأنساق الدينية التي ناقشها المُؤلِّف ببراعة واقتدار.

إن استعراض الفصول السابقة جميعها في هذه القراءة -التي هي في جوهرها عرض لفكرة الكتاب وأطروحته الأساسية- هو أمر محفوف بالصعوبة؛ لذا سنكتفي بالإشارة إلى الفصلين: الأول والثاني، لما فيهما من دلالةٍ على الطبيعة المنهجية والمحتوى المعرفي لهذا الكتاب الفريد الزاخر بالأفكار الخلّاقة والمناقشات العميقة التي تتعذَّر على التلخيص والاختصار.

١. الفصل الأول: التوحيد: جوهر الخبرة الدينية

يتأسَّس هذا الفصل على مقولةٍ خلاصتها أن مفهوم "الرب" هو نواة الخبرة الدينية، وأن الركن الأول من أركان الإسلام (لا إله إلا الله) يعني ببساطة مركزية مفهوم "الله" لدى المسلم، وذلك في كل مكان، وفي كل فعل، وفي كل فكرة، وفي كل زمان. فوعي المسلم ممتلئ بوجود الله تعالى على الدوام، وهو شاغله الأسمى.[1]

وينشأ عن هذا الوعي التخلُّصُ ثم الإطاحةُ بالفكرة الفلسفية القائلة بالعَماء المشوّش للكون، وتترسَّخ القناعة اليقينية بوجود ملكوت يحكمه النظام والقانون، ويكون فيه الله تعالى هو المهيمن الفاعل الأوحد لكل شيء في هذا الكون، مع الاعتراف بفكرة "السببية"، ولكن من دون القول بحتميتها، بحيث استُبدِل الفعل الإلهي بها، مع اليقين

[1] الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٦٣.

الجازم بأن الإله العادل لا يمكن أن يَخدع الإنسانَ أو يُضلِّله، وإنما يجعل النتيجة الصحيحة تتناسب دائماً مع تتبُّع السبب الصحيح، فيكون الإله هو مصدر توازن الكون، والرقيب عليه.

ويترتَّب على هذا التصور الصحيح للألوهية أن تكون جميع توجُّهات الإنسان وأفكاره وأعماله حقائقَ لا تقبل الشك. فإلى الله تعالى المنتهى، وهذا يعني أن كل العلائق والغايات في الكون تتجه إليه وتستقر، بحيث تكون الذات الإلهية هي مصدر الخيرية في كل ما في الوجود، ومصدر الأساس القِيَمي لكل ما في الوجود.[٢]

ولتأكيد هذا التصور الفريد للوحدانية الإلهية، تمَّ تطهير الوعي الديني من جميع مظاهر الشِّرك ومحتملاته على نحوٍ حاسم لا هوادة فيه، مع تأكيد الإسلام التزامَ الدقة اللغوية العالية بصورةٍ تليق بالمدركات المتعلقة بالذات الإلهية المتفرِّدة المنقطعة النظير، أو حتى شبه النظير، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، فاختفى من المعجم الديني الإسلامي جميعُ الألفاظ المُلبسة، مثل: الأب، والفادي، والمُخلِّص، وأُكِّدت مفاهيم وحدانية الذات الإلهية وتعاليها على نحوٍ لا يستطيع معه أيُّ إنسانٍ أن يَدَّعي علاقةً مع الله ينفرد بها دون مَنْ عداه مِن البشر؛ فالعباد كلهم سواسية أمام الله تعالى، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وكل ما في الكون يقف على خطٍّ واحدٍ هو الخطُّ الفارقُ بين الطبيعي والمتعالي.

ومن أعمق الأفكار التي نوقشت في هذا الفصل فكرةُ الشرط الأخلاقي في الفعل الإنساني، التي تُمثِّل في جوهرها التعبيرَ الصحيحَ عن حرية الإنسان في اختيار القانون الأخلاقي في التعامل مع الله تعالى؛ أي ممارسة الحرية في الطاعة والعصيان، بحيث يترتَّب على ذلك تأكيد حقيقة أن القِيَم الأخلاقية الحُرَّة هي أرقى من القِيَم الأولية الطبيعية المخلوقة مع الجِبِلَّة، مثل الملائكة المجبولة على الطاعة وفعل الخير من دون الخضوع للشرط الأخلاقي والأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؛ فالموقف الأخلاقي للإنسان من الطاعة هو الشقُّ الأسمى من الإرادة الإلهية، التي لأجلها خلق الله الإنسان،

---
[٢] المرجع السابق، ص٦٦.

وأنعم عليه بأن جعله خليفةً في أرضه. وبفضل هذه النعمة الإلهية أصبح الإنسان أسمى منزلةً من الملائكة بِحُكْمِ امتلاكه حرية الاختيار الأخلاقي. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة: ٣٤).

وتأسيساً على هذه الحقيقة الوجودية في الخلق الإنساني، يُقرِّر الفاروقي مسؤولية الإنسان عن مصيره؛ فالتوحيد عقد واضح المعالم بين الله والإنسان، ولا بُدَّ للإنسان من أداء هذه المهمة الجليلة بنفسه، وإلا فلا وزنَ لعمله، مُستشهِداً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك: ٢)، ومُؤكِّداً أن الإنسان سيغدو أُلعوبةً في حال لم يكن خَلَاصُه من فعل نفسه، وإنما من فعل أحدٍ غيره، حتى لو كان ذلك "الغير" هو الله تعالى.

وهذا الفعل مُترتِّب على طبيعة الفعل الأخلاقي، وهو ما قاله الفاروقي -رحمه الله- في هذا الشأن تحديداً، إلا أنه ليس ممّا يُوافَق عليه؛ لأن في ذلك اختزالاً للعبودية بصورة عقدٍ واجب التنفيذ بين الله والإنسان، وهو قريب من فكر المعتزلة الذين أوجبوا على الله تعالى إيجابَ الثواب ورعاية الأصلح في أفعال عباده، وهو على غير منهج أهل السُّنة الذين يعتقدون جازمين أن العمل بمجرَّده غير كفيلٍ بالنجاة الأخروية. وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا." (أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ). وللحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله- تحقيق بديع في هذا الشأن لا يتَّسع المقام لنقله وتحريره.

٢. الفصل الثاني: التوحيد: لُباب الإسلام

يتأسَّس هذا الفصل على مُسلَّمة خلاصتها أن الإسلام هو جوهر الحضارة الإسلامية، وأن التوحيد هو جوهر الإسلام. وهذه المُسلَّمة لم يُشكِّك فيها مسلمٌ قطُّ، أو إنسانٌ عاش في ظلال الحضارة الإسلامية حتى لو لم يكن مسلماً، ولم يجرؤ أحدٌ على اقتراف خطيئة التشكيك فيها سوى بعض المستشرقين المتعصبين المفتقرين إلى النزاهة العلمية، وبعض الإرساليات التبشيرية. وفي هذا السياق، يُؤكِّد المرحوم الفاروقي أن للثقافة

والحضارة الإسلامية جوهراً معرفياً هو التوحيد، وأن هذا الجوهر قابل للوصف والتحليل باعتباره النواة الأُولى للإسلام، وما نشأ عنه من ثقافة وحضارة.

وترسيخاً لهذه الحقيقة، يُؤَكِّد الفاروقي بِلُغةٍ جازمةٍ أنه لا إسلامَ إلا بالتوحيد، وأنه في غيبة التوحيد لن تصيرَ السُّنة النبوية محلّاً للشك، وتهتزَّ صفتها الآمرة فحسب، بل ستنهار مؤسسة النبوة من أساسها. وعلى هذا، فإن الاعتصام بمبدأ التوحيد هو حجر الأساس لكل ما يتعلَّق بالتقوى والتدين والفضيلة؛ ما يعني أن التوحيد هو المقام الأسمى في الدينونة، وأن جزاءه أعظم الجزاء. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام: ٨٢).

بعد ذلك عكف الفاروقي على تقديم نقد جوهري عميق لمظاهر الخلل في مفهوم "فكرة التعالي الإلهي"، في الديانتين: اليهودية والمسيحية، ولكن بلغة علمية نقدية رصينة بعيدة عن التشفّي والشعور بالتفوُّق العقائدي، حتى إنه سبر القضايا في سياقها العميق من التحولات الرؤيوية في الروح والعقل، مع خبرة ملحوظة بالمقولات الأساسية في تاريخ هاتين الديانتين، والرجوع المباشر إلى نصوص الكتب المقدسة التي كان الفاروقي أحد كبار المتخصصين فيها، وقد استخدم فقه اللغة في رصد مظاهر التحولات والانحراف بفكرة التسامي المطلق للذات الإلهية. فاليهودية تستعمل صيغة الجمع (ألوهيم) للحديث عن الرب في التوراة، وما انبثق عن هذا التصور الجمعي للآلهة من أفكار خاطئة للصراع بينها كما وردت في التوراة، فضلاً عمّا تورَّطت فيه اليهودية من الدعوى الفارغة التي مفادها أن علاقة الرب بشعبه تُحتِّم عليه أن يُنعِم على هذا الشعب بالرغم من وقوعه في الرذيلة والعناد والجور. ثم أخذ الفاروقي يرصد مظاهر الخلل في التصور المسيحي للذات المتعالية التي طوَّرت فكرة أُبوَّة الإله لملوك اليهود، وأسبغتها على عيسى عليه السلام، ثم أعطت هذه الفكرةَ المضمونَ الكينونيَّ المزيلَ للتعالي القائلَ بوحدة الجوهر بين الإله وعيسى.

وفي موازاة هذا الانحراف في التصورات، وقف الإسلام على طرفي نقيضٍ مع اليهودية والمسيحية بخصوص هذه القضية الفطرية، وأعلن بكل صراحة ووضوح أن مسألة التسامي الإلهي المطلق وتنزيهه هي موضع اهتمام كل إنسان، وأن الله تعالى خلق البشر قادرين على معرفته في تعاليه المطلق؛ فتلك هي الفطرة التي فطر الله تعالى عليها البشر، وهي في جوهرها مَلكةٌ يتعرَّف بها الإنسانُ إلى الذات الإلهية في سُموِّها، ووحدانيتها، وطبيعتها

المتعالية المفارقة للمخلوقات. وعلى هذا، فإن الإسلام لا يُسلِّم للهندوسية تفريقها بين البشر، وزعمها بوجود أناس يمكنهم التأمُّل في الذات الإلهية في تساميها المطلق، وأناس لا يمكنهم إدراك هذه الذات إلا بوساطة آلهة أُخرى، هي الأصنام، أو ما هو على شاكلتها من الوسائط التي زعمت أنها تُقرِّبهم إلى الله زُلفى، وهو ما أنكره الإسلام أشدَّ إنكار.

وقد أبدع المرحوم الفاروقي في رصد بعض مظاهر التعالي للذات الإلهية في الوعي الإسلامي من خلال الفن ثم اللغة. وفيما يخصُّ اللغة، فقد أكَّد الفاروقي حرص المسلمين -على اختلاف ألسنتهم، ولهجاتهم، وخلفياتهم المعرفية والثقافية- على مراعاة الطابع المتعالي للذات الإلهية كما عبَّر عنه لسانُ القرآن الكريم، بحيث لم يعترفوا بقرآنية النصوص المترجمة عن القرآن الكريم؛ فالقرآن المكتوب بالعربية هو وحده القرآن الكريم، وما عداه من ترجماتٍ لمعانيه لا يعدو مجرَّد أدوات مُعاوِنة على فهمه، لكنها لا تُعَدُّ نصوصاً، فلا يُتلى القرآن الكريم إلا بالعربية. ولذلك غدا كل حديث عن الذات الإلهية محصوراً في ما جاء عنها في القرآن الكريم، ومُلتزِماً التزاماً دقيقاً بالتعبيرات القرآنية وأشكالها الأدبية (توقيفية الأسماء والصفات والأفعال).

وفي سياق معالجة هذه القضية، انعطف الفاروقي بالنظر النقدي العميق في مشكلة المجاز اللغوي، وما نجم عنه من تأويل مُسرِف للصفات الإلهية كما تبلور لدى المعتزلة تحديداً، فضلاً عن المخاطر التي كانت ستحيق بالنص القرآني والصفات الإلهية لو تمَّ الانزلاق الكامل في هذه السبيل. وفي هذه اللحظة التاريخية الفاصلة، برز الدور الجوهري لأبي الحسن الأشعري -رحمه الله- الذي استنقذ الموقف، وقدَّم صيغة معتدلة في التعامل مع الصفات الموهمة للتشبيه، وأفلح في تهدئة الإيقاع وإعادة التوازن إلى هذه المنطقة المحفوفة بكثير من المخاطر والانزلاقات، مع الإشادة بالدور البطولي لعلماء اللغة الذين أبدعوا في حفظ كيانها المعجمي والدلالي بما يكفل إزالة جميع مُعوِّقات التأويل الخطأ لدى القارئ المعاصر للقرآن الكريم. فبهذا الحفظ الباسل للغة ظلَّ تنزيل الأحكام القرآنية على شؤون الحياة دائمة التغيُّر مُتجدِّداً على الدوام، وكذا ترجمة المبادئ القرآنية العامة إلى تشريعات مُعبِّرة عن المهام والمشكلات المعاصرة، بحيث يمكن القول بنبرة لا تخلو من الفخر إن قدرة أيِّ باحثٍ على فهم الوحي اليومَ كما فهمه المسلمون في صدر الإسلام (عهد التنزيل) تُمثِّل معجزةً في تاريخ الأفكار.